

التبوع الجزائري في الشعر المحافظ خلال العصر الوسيط

Algerian ingenuity In vertical poetry during the Middle Age.

أحمد راجع¹ جامعة أحمد دراية أدرار (الجزائر) ahm.radja@unrare.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/11 تاريخ القبول: 2022/07/31 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعريف بالشعر الجزائري المحافظ في العصر الوسيط، وباستخدام المنهج الوصفي التحليلي، وقد تمت الاستعانة بالأداة المتمثلة في كتب الشعر العربي في المغرب الإسلامي، بتطبيقها على العينة المحددة المتاحة من نماذج من القصائد الشعرية العمودية في العصر الوسيط. وقد تم التوصل إلى النتائج الملخصة في تنوع موضوعات القصائد، ورفقي اللغة وحسن عباراتها، وسموّ الخطاب التواصل الفصيح، وفي ضوء هذه النتائج تقترح الدراسة البحث المتواصل في الشعر العربي بالمغرب الإسلامي وخاصة المغرب الأوسط لإثراء المكتبة الوطنية.

كلمات مفتاحية: شعراء الجزائر؛ موضوعات شعرية؛ الإبداع؛ السلوك الإنساني.

Abstract:

The Algerian heritage abounds with scholar in thought, culture and literature, during the medieval era, the middle Maghreb witnessed a poetic movement led by poets scholars who went to treat various topics in religion, politics and morals related to people's lives.

This movement gave birth to the vertical poems which were very creative because of their good expression and exquisite style as the wisdom and the exhortations they contained that correct human behavior.

Keywords: Algerian poets; poetic themes ;creativity; human behavior.

المؤلف المرسل: أحمد راجع، الإيميل: ahm.radja@unrare.dz

مقدمة:

الشعر ديوان العرب ولسانهم ، وقد جاءت هذه الدراسة محتجة بالشعر الجزائري المحافظ، ومحددة معالم الجودة والبراعة الأدبية فيه، للوصول إلى إبراز التفوق الثقافي لدى الشاعر الجزائري في عهد الدولة الإسلامية القوية، أما إشكالية الدراسة فتقوم على السؤال الآتي: ما هي النماذج الشعرية التي تدل على النبوغ الجزائري في العصر الوسيط؟

وتهدف الدراسة إلى التعريف بمستويات هذا الخطاب التواصلية الشعري، والإشادة بالأعمال الشعرية المتنوعة، وإبراز دورها في خدمة الإنسان بالاستدلال بأقوال الشعراء.

تمهيد:

نقصد بالشعر المحافظ ذلك "الفن الغنائي من فنون الكلام الذي يوحى عن طريق الإيقاع الصوتي واستعمال المجاز، بإدراك الحياة والأشياء إدراكا لا يوحى به النثر الإخباري، ويزيد الشعر العربي قيما لفظيا هو القافية والوزن وأساليب العرب المخصوصة به، وهو عند العرب من العصر الجاهلي إلى عصرنا الحديث". (المهندس، 1984، صفحة 210).

وقد تأسف من درس الأدب الجزائري شعره ونثره عن ضياع كثيره لظروف تاريخية معقدة، واكتفى المؤلفون بما وجدوه متناثرا في كتب السير والتاريخ والأدب في المكتبات الجزائرية والعربية، وضمّوه في كتب تخصصت في الأدب الجزائري قديمه وحديثه، ولذلك جاءت هذه الدراسة قاصرة ومحكومة بالمتاح من الشعر المذكور، وهي تهدف أساسا إلى إظهار النابغة في دليل نبوغه من خلال إبداعه الشعري ومن خلال صيته ومكانته وحسب، وقد تم انتقاء المقطوعة الشعرية حسب غرضها وموضوعها وأسلوبها وقيمتها التعليمية.

أولا- بكر بن حماد الرّستمي والإشادة بفضل الصحابة:

الشاعر هو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد الزّناتي ولد سنة 200هـ ، نشأ على الدّرس منذ صِغَره في القيروان وبغداد، أقرأ بالقيروان، له مقدرة أدبية، وله شاعرية ، وهو ثقة مأمون حافظ للحديث، له شعر كثير حسن في كثير من الأغراض، توفي سنة 296هـ (الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، 2006،

صفحة 78). ويعدّه الدارسون والنقاد الأديب الجزائريّ الأوّل بحقّ، وأجمل الشعراء نسجا، فهو الذي جالس أبا تمام، ودعبل الخزاعي، وعلي بن الجهم في بغداد. يقول بكر في فضل الإمام علي "كرم الله وجهه" الصحابي الجليل، هاجيا قاتله (شاوش، 1966، الصفحات 22-23):

قل لابن ملجم والأفدائر غالبه هدمت ويحك للإسلام أركاناً
قتلت أفضل من يمشي على قدم وأول الناس إسلاماً وإيماناً
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما سنّ الرسول لنا شرعاً وتبياناً
صهر النبي ومولاه وناصره أضحت مناقبه نُورا وبرهاناً

وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكرنا إذا لقي الأقران أقراناً
إنّ هذه الأبيات من شعر النقائض، وهو "شعر في الفخر يردّ فيه الشاعر بقصيدة بنفس الروي والوزن الذي عليهما قصيدة الشاعر الأول، كأنه يريد أن يظهر تفوّقه عليه من ناحية المعنى ومن ناحية الفنّ نفسه" (ضيف، 2002، صفحة 242)، هي أبيات يعارض بها قول الشاعر عمران بن حطان، حين ضرب عبد الرحمن بن ملجم عليّ بن أبي طالب-رضي الله- على رأسه ضربة الموت، وقد مدح عبد الرحمن بن ملجم بن ظبيان السدوسي الشيباني الوائلي خطيب الصفرية، من الخوارج وشاعرهم (النويري، 2004، الصفحات 28-31-32)، فقال:

لله درّ المرادي الذي سفكت كفاه مهجة شرّ الخلق إنسانا.

قلت: وهذا من أعظم الكذب، ورغم ذلك فقد درس الشاعر بكر بن حماد موضوع الشاعر عمران بن حطان دراسة دقيقة، وبحث عن أدلة من الدين الإسلامي دقيقة ليوثقها للتاريخ، وبحث في أدلة خصمه لينتقضا دليلا دليلا فنبغ في مناظرته الشعرية هذه.

ثانيا- أفلح بن عبد الوهاب والتحليّ بمحاسن الآداب العالية والعلوم النافعة (ت240هـ)

هو شاعر مقتدر على النظم، حافظ للشعر، فقيه، ثالث الأئمة الرستميين، تلقى العلم عن أبيه وعن جدّه وعن مشايخ تيهرت، تصدر التدريس صغيرا في الفقه والأصول واللغة وعلم الكلام، له جوابات

وفتاوى في النوازل، بلغت الدولة الرستمية في عهده رقيا كبيرا، أدار الإمامة بكياسة ومهارة وعدل ودهاء نصف قرن كامل، عاصر ستة خلفاء عباسيين، ويعتبر أعظم من تولى الخلافة في المغرب الإسلامي، فكان رجل علم وسياسة وقيادة ودولة، علم فعلم، ساس الرعية وقاد الجيوش، تألفت في دولته الحضارة، وتوفي سنة 258هـ. (عمي، 2000، صفحة 61)

يقول في منظومته المشهورة الجامعة للنصائح والحكم (الباروني، 2005، صفحة 240):

العلم أبقى لأهل العلم آثارا وليلهم بشموس العلم قد نارا
فضل ذوي العلم حتما لا يماثله فضل فأكرم بأهل العلم أخيارا
اشدد إلى العلم رَحْلا فوق راحلة وكن إلى طلب التعليم سيارا
وابذل من الجهد ما يشفي الفؤاد وجب مهامة الأرض أحزانا وأقطارا
ودم عليه ولا تسأم له طلبا والزم دراسته سرا وأجهارا
فاطلب من العلم ما تقضي الفروض به وارذف به عملا في القلب نورا
واجعله ذخرا ليوم لم يُفد ندم لموقف العرض أن لا تُورد النارا

فهذه الأبيات من أجود ما قاله الشاعر، وهي من شعره المشهور في الجوامع وبين طلبة العلم، يبين فيها فضل العلم على الإنسان، ليكون فيه من الأخيار، ويدعو فيها إلى طلب العلم للدين والدنيا، بالارتحال إلى أهله حيثما كانوا، والسير إلى التعلم في كل أرض، والتزام دراسة العلم، والصبر عليه وبذل الجهد المطلوب خاصة في علوم الدين لتحقيق النجاة في الدنيا، وليكون ذخرا لصاحبه في الآخرة، فنبغ قول شعر الوعظ.

ثالثا-حسنبن الفكون الموحدي وحب الوطن (كان حيا سنة 602هـ):

الشاعر هو أبو علي حسن بن علي بن عمر الفكون الأديب القسنطيني، انقطع للدرس في صغره، واطلع على أسرار اللغة وكشف مكنونات البلاغة، وكان جوالا، قد مدح الخلفاء الموحدين في قسنطينة، كما كان من بيت كريم لا يحترف بأدبه، له شعر ظريف ساحر، وكتاب في "الرحلة" (الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، 2006، صفحة 170)، و(نويهض، 1980، صفحة 253)

يقول في وصف مدن الجزائر التي زارها ليغرس عاطفة الحب ، والتعلق بالوطن(الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، 2006، صفحة 172):

أمالثني بكلّ رشى أبيّ	فلما جئت "ميلة" خير دارٍ
يضيق بوصفها حُزف الرّويّ	وجئت "بجاية" فجئت بدورٍ
بمعسول المرائش كوثريّ	وفي أرض الجزائر هام قلبيّ
بلين العطف والقلب القسيّ	وفي "مليانة" قد ذبت شوقاً
وهمت بكلّ ذي وجهٍ وضيّ	وفي "تنس" نسيت جميل صبري
بوسنانٍ المحاجر لؤذعيّ	وفي "مازونة" مازلت صباً
بظامي الحُضر ذي ردّف رويّ	وفي "وهران" قد أمسيت رهناً
جلبت الشّوق للقلب الحليّ	وأبدت لي تلمساً بدورا

إنّ هذه الأبيات من شعر الوصف "فالوصف جزء طبيعي من منطق الإنسان، لأن النفس محتاجة من أصل الفطرة إلى ما يكشف لها من الموجودات، ولا يكون ذلك إلا بتمثيل الحقيقة وتأديتها في طريق من طرق السمع والبصر والفؤاد، أي الحس المعنوي، وسبيل الأمم الطبيعية في ألسنتها، وهذا الحس يقربها من الكمال ، فإذا أضيفت سعة العبارة ومطاوعة اللغة في التصريف- كما هو الشأن عند العرب- كان أجمع في الحس وأبدع في تصوير الحقيقة"(الرافعي، 1997، صفحة 108).

ففي هذه الأبيات صدق شعري وصدق عاطفي، فلما عبّر الشاعر عن حبّه وإعجابه بالمدن الجزائرية التي زارها، جاءت كلماته منتظمة في قصيدة شعرية رائعة، فنبغ في التعبير الشعري.

رابعا-إبراهيم بن موسى الأنصاري الموحّدي وأخلاق الناس(690هـ):

الشاعر هو إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري ، كاتب فقيه أديب ، شاعر راجز مجيد ، ولد بتلمسان سنة 609 هـ وتعلم بالأندلس صغيراً، جال بالمغرب والأندلس إلى أن توفيّ على سنّ عالية سنة 690 هـ ، وهذا قوله في وصف أخلاق الناس(الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، 2006، صفحة 177):

الْعَدْرُ فِي النَّاسِ شِيْمَةٌ سَلَفَتْ قَدْ طَالَ بَيْنَ الْوَرَى تَصَرَّفَهَا
مَا كَلَّ مِنْ سَرَتْ بِهِ نَعَم مِنْكَ يَرَى قَدَرَهَا وَيَعْرِفُهَا
بَلْ رُبَّمَا أَعْقَبَ الْجَزَاءُ بِهَا مَضَرَّةً عَنْهَا عَزَّ مَصْرُفُهَا
أَمَّا تَرَى الشَّمْسَ تَعْطِفُ بِالنُّورِ عَلَى الْبَدْرِ وَهِيَ يَكْسِفُهَا.

ففي المعجم "الْعَدْرُ ضِدُّ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، تَقُولُ: عَدَرَ إِذَا نَقَضَ الْعَهْدَ ، وَرَجُلٌ عَادِرٌ وَعَدَّارٌ وَعَدِيرٌ وَعَدُورٌ، يُقَالُ لِلرَّجُلِ يَا عُدْرُ ، وَالْأُنْثَى يَا عَدَارٍ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي النِّدَاءِ ؛ وَامْرَأَةٌ عَدَّارٌ وَعَدَّارَةٌ، وَغَدَرَتْ النَّاقَةُ إِذَا تَخَلَّفَتْ عَنْ غَيْرِهَا فِي الشُّوقِ وَلَمْ تَلْحَقْ (رضا، 1960، الصفحات 270-271).

وفي معنى الغدر قالوا "هو الرجوع عما يبذله الإنسان من نفسه ويضمن الوفاء به، وهذا الخلق مستقبح وإن كان لصاحبه فيه مصلحة ومنفعة وهو بالملوك والرؤساء أقبح" (الجاحظ، 1989، صفحة 30).
وفي هذه الأبيات قرن الشاعر شيمة الغدر بالحسد على النعمة، والإساءة إلى المحسن، في تصوير حسي طبيعي لتقريب المعنى، فنبغ في تصوير صفات النفس بالشعر.

خامسا-مُحَمَّدُ بْنُ حَمَّادِ الْقَلْعِيِّ وَرِثَاءُ أَطْلَالِ الْمَدَنِ (ت628هـ):

الشاعر هو عالم تضلّع في علوم السيرة والتاريخ والآداب واللغة والحديث، درس على علماء بجاية وانتقل إلى الجزائر وتلمسان لطلب العلم ، من مؤلفاته " الديباجة في أخبار صنهاجة و"عجالة المودع علامة المشيع"، وقد شهد سقوط الدولة الحمّادية، و يقول في رثاء القلعة المخربة(بوعزيز، 1995، صفحة 34):

وقصر بلّارة أودى الزّمان به فأين ما شادَ منها السّادةُ الأوّلُ
وقد عفا قصر حمّاد فليس له رسم ولا أثر باق ولا طللُ
وإنّ في القصر قصرَ الملك معتبرا لمن تُعزّره الأيام والدّولُ
حتّى المصلّى بَلَّتْ آيَاتُهَا وَعَقَّتْ إلّا جدارا وما طلّت به الطّللُ
كرجّعك الطّرفَ كانت كلُّ آبرة فما تراه كذاك العمرُ والأجلُ

لقد اتجه الشعر العربي في مساره إلى رثاء الدول ثم القصور ثم المدن ثم العلماء، وبكاء المدن في الشعر هو باب من أبواب الرثاء، عرفه شعراء المشرق والمغرب، إلا أن المغاربة والأندلسيين كانوا فيه أكثر روعة، ولعل ذلك يعود لكون خراب المدائن، وزوال الدول كثر وتتابع في المغرب العربي، و في الأندلس فقد أحزن الشعراء أن يروا مدنها تسقط مدينة إثر مدينة في أيدي الغزاة، فبكوها بقصائد ومقطعات، خلدها لنا التاريخ في مصادره الأدبية المختلفة، والشاعر محمد بن حماد القلعي يرثي قصر الدولة الحمادية بوصف مؤلم، وحسرة شديدة، فنبغ في تصوير ما رثى.

سادسا- محمد بن الحسن القلعي البجائي الحفصي (ت673هـ) والاعتبار بتاريخ السلف:

الشاعر أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي، نشأ بالجزائر وبجاية، رسخ في علوم العربية وفنون الأدب، تصدر للإقراء، كان سخيا ذا مروءة، وهو شاعر مطبوع مؤلف للكتب، فله "الموضح في علم النحو" و"صدق العيون في تنقيح القانون" ونشر الخفي في مشكلات أبي علي"، توفي في بجاية سنة 673 هـ.

يقول في شعر الاعتبار بأخبار الأولين (الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، 2006، صفحة 191)، و(الغبريني، 1979، صفحة 72):

تنافس الناس في الدنيا وقد علموا	أن المقام بها كاللحم بالبصر
أودى بدارا وأودى بآبن ذي يزن	وفل غرب هرقل إنّه حر
ولم يفد سبأ مأل ولا ولد	ومرّفته يد التشتيت في الأثر
ولتفكر في ملوك العرب من يمن	ولتعتبر بملوك الصين من مضر
أفناهم الدهر أولادهم وآخرهم	لم يبق منهم سوى الأسماء والسير

فهذه الأبيات من شعر الحكمة الذي زين الشعر العربي منذ القديم، فقد كان الشعراء يقطرون خبراتهم شعرا لينتفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم، فكان الشعراء يضمنون قصائهم كثيرا من الحكم ذات الصدق العام، والتي لها هدف تعليمي خلقي، تقدم الموعظة الحسنة في شكل مختصر جامع مانع (إبراهيم، 1986، صفحة 143)، و"سيف بن ذي يزن" أحد ملوك العرب في اليمن في عصر ما قبل الإسلام،

قتله الأحباش سنة 574م، و"هرقل" عظيم إمبراطورية الروم توفي سنة 641م، و"سبأ" مملكة عربية بمنية قديمة عمّرت طويلا لها حضارة بارزة، والشاعر هنا يُذكر الغافل بمن تنافسوا هذه الدّنيا من الملوك والدول من الروم والصّين والعرب، فكيف أفناهم الدّهر، وما بقي منهم سوى الأسماء والسير، فتراه يقوّي كلامه بسير السابقين مبينا مصائرهم، ومقتبسا قصص حياتهم، فنبغ في شعر الحكمة والموعظة.

سابعا-أبو حمو موسى الزّياتي الثاني العبدوي وسياسة الملك (791هـ):

الشاعر هو أديب شاعر، ولد سنة 732هـ، فارس محارب شجاع، وسلطان تلمسان القوي، قد استرجعت الدولة الزّياتية مجدها واستقرارها في عهده، قومه "بنو عبد الواد" أنجاد عقبة بن نافع عليه السلام (63هـ) وأنصاره على البربر، فنالوا بركاته وإجابة الدعاء حتى الآن "(خلدون، 1903، صفحة 96)، ونظّم أركان الدولة بفضل ثقافته وحنكته وشجاعته الواسعة، وجعل من تلمسان مدينة الإشعاع العلمي والاقتصادي والحضاري حتى أصبحت أهم وأبرز حاضرة في بلاد المغرب الإسلامي، توفي مقتولا سنة 791هـ، ألف في السياسة كتابا سماه "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وأكثر شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول في مناقب الملك (الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، 2006، الصفحات 262-263):

وكلّ فتى أعطى الغرام قياده	وبات على ضيّم فليس بحازم
وما فاز بالعليا سوى كلّ ماجد	قريب من التّقوى بعيد المآثم
صبور على البلوى طهور من الهوى	يساوي بجلو الشّهد مرّ العلاّم
بهمّتنا الغليا سمونا إلى العلا	وكم دون إدراك العلا من ملاحم
مناقب زيانية موسوية	يذلّ له عزّ الملوك القماقم

فهذه الأبيات من شعر الفخر الذي يخص فيه الشاعر نفسه وقومه بالمدح، فيعدّ المآثر والخصال، والفخر "فطرة في العرب، لاعتزازهم الشخصي والقبلي، وهو وسيلة للدفاع عن النفس كالسيف، يلمس فيه مشاعر الشاعر وأحاسيسه، فبقدر ما تجود به قريحته تكون براعته في الإشادة بالمفاخر والمآثر" (التونجي، 1999، صفحة 682)، فالشاعر يصف الملك بالحزم والعَدْل، وبالتّقوى ليستحق العلياء، وبحسن التدبير والصبر ليكون أهلا لسيادة الرعية، ثم ينسب هذه المناقب لقومه ذوو السلطان، فنبغ في شعر الفخر.

ثامنا-يحيى الشاوي وشعر اللغز(1096هـ):

الشاعر هو أبو زكريا يحيى بن مُحمَّد بن مُحمَّد بن عبد الله بن عيسى الشاوي، عالم بالنحو، مفسّر، فقيه مالكي، ولد سنة 1030هـ بالجزائر أصله من مليانة، حجّ سنة 1047هـ، وتصدّر للإقراء بالأزهر الشريف ، زار تركيا والشام، توفي سنة 1096هـ في رحلة إلى الحج، ودفن بالقرافة بالقاهرة، وقد خلف كتباً منها "شرحالتسهيل" لابن مالك، "لامية إعراب الجلالة" و"حاشية على تفسير الرّيحشري وابن عطية"، والتّبل الرقيق في حلّوم السابّ الزنديق" في التوحيد(نويهض، 1980، صفحة 186).

يقول اللاّغز:

وقلّ لهم ما سبعة خلّقوا معاً	وما سبعة في ثوب خَزّ مورّد
حواجِبهم سَبْعون في وجه واحد	وأعْيُنهم تسعون في خَلق هُدْهد
أبوهم له حرفان من اسم جَعْفَر	وحرفان من اسمي عليّ وأحمد
فيقول يحيى الشاي في حلّه شعرا :	
هم سبعة من بيضة خلّقوا معاً	ومثلهم في ثوب خَزّ مورّد
حواجِبهم سَبْعون في كلّ واحد	وأعْيُنهم تسعون صورة هُدْهد
أبوهم رجيّم مارد متمرّد وقد جُمعت من لفظ لغز مقيد	

وقد نوّه دارسو الأدب الجزائري بنبوغ هذا الشاعر في شعر اللغز(الغبريني، 1979، صفحة 72)، و(بلقاسم، 2007، صفحة 287).

فاللّغز هو ذلك "الشيء المكتوم، ولا يعرف إلا بالتفسير، وهو الكلام المعتمى لا يدركه السامع بسهولة، وأصل الكلمة الحفرة الملتوية يحفرها اليربوع والفأر والضب، ثم غدا نوعاً من الأُهْيَات والمعميات، يستخدمه الناس في جلساتهم وسهراتهم، وأطلق على اللغز أسماء أخر مثل: المعتمى، والأحجية، عرفه العرب قديماً ، فألّف فيه الخليل وذكره الثعالبي، واستخدمه الحريري في مقاماته، وقد يقع اللغز في اللفظ، أو التركيب، أو الإعراب أو المعنى، وقد أورد ابن سلام لأبي دؤاد الإيادي لغزا في اللفظ وهو:

ربّ كلب رأيته في وثاق جعل الكلب للأمير جمالا

ربّ ثور رأيته في جحر نمل وقطاة تحمل الأثقالا

فالكُلب الحلقة تكون في السيف، والثور ذكر التمل، والقطاة من الدابة العجز ومركب الرديف(التونجي، 1999، صفحة 740).

والشاعر هنا استطاع أن يحلّ اللغز بالشعر، والذي يكون حلّه بالنثر "السماوات السبع والأرضين السبع، والعرش المجيد له حرفان من اسم جعفر هما العين والراء، ومن اسم علي العين، ومن اسم أحمد الميم أو الدال، فالذي أشار له هو العرش المجيد محيط بالسماوات، التي هي على صورة هدهد منمقة بالكواكب تنميق الهدهد بالنقط، ومنها يقع الرجم لكل شيطان مارد متمرد"(حمادوش، 1983، الصفحات 135-136).

تاسعا-أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي وشعر الزّهد(875هـ):

الشاعر هو فخر أئمة علماء الجزائر وضُلائها الأتقياء الورعين الأبرار، الإمام المجتهد، الحجة أبو زيد عبد الرحمن بن مُحمّد بن مخلوف الثعالبي الجعفري، ولد بناحية وادي "يسر" في الجنوب الشرقي لعاصمة الجزائر، لقبيلة الثعالبة، نشأ نشأة علم وصلاح وتقوى، وتعلم ببجاية على يد مشايخ كالمنجلاقي والنقاوسي والمشدّالي، ثم انتقل إلى تونس ومصر وبلاد الترك، ثم حجّ، وعكف على نشر العلم ووعظ الناس والانقطاع للعبادة والتأليف، وخطب على منبر الجامع الأعظم بالجزائر، وقد ترك ما يزيد على التسعين مؤلفا، فله "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، و"الدّر اللوامع في قراءة نافع"، و"روضة الأنوار ونزهة الأخيار"، توفي يوم الجمعة 23 رمضان سنة 875هـ، وُدفن بعاصمة الجزائر، وله ضريح مشهور.(الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 1994، الصفحات 272-273-274)، و(نويهض، 1980، صفحة 91).

يقول الثّعالبي:

وإنّا مُرؤ أذن بسبعين حجةً جديراً بأن يسعى معدّاً جهازه

وأن لا تهزّ القلب منه حوادثٌ ولكن يرى للباقيات اهتزازَه

وأن يسمع المصعَى إليه لصدّره أزيزا كصوتِ القدر يُبدي ابتزارَه

فما بعد هذا العمر ينتظرُ الذي يعمّره في الدّهر إلا اغتزارَه

وليس بدار الذلّ يرصّي أخو حجّى ولكن يرى أنّ بالعزير اعتزارَه

وهذه الأبيات وحدها قد أوردتها الجيلالي في تاريخه، وهي تدل على نبوغه في اختيار قافية الهاء الدال على الحسرة والتأوه مما يناسب موضوع التصوف والزهد (الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 1994، صفحة 275)، وقد ذكر الشاعر الواعظ بالاستعداد لما بعد الموت، خاصة لما يبلغ الإنسان أرذل العمر، فيأمره بأن يتجهز للآخرة، وأن يهتز قلبه للباقيات الصالحات من أعماله، وليتحسّر على ما ساء من فعله، فذو العقل - في رأي الشاعر - لا تغره دار الدّلّ الفانية، وإنما هو محاسب يوم القيامة بما كُتِب في صحيفته.

خاتمة:

نخلص إلى أن نماذج الشعر الجزائري المحافظ في العصر الوسيط تنوّعت فجاءت في:

- شعر النقائض والمناظرات الشعرية، وهي تقوم على قوة العبارة وسلامة الحجّة الدينية.
- شعر الوصف المنبثق من حبّ المكان والإعجاب بجماله.
- شعر المواعظ والحكم والزهد المبني على التأثير في النفس بالمعاني الجميلة واستمالتها ترغيباً وترهيباً.
- شعر رثاء المدن المشهورة المخربة المعبر عن الحزن والأسى والبكاء.
- شعر الفخر الذي يخلّد الإنسان ويمجّده بالصور الفنية، وعبارات الحسن والجمال.
- شعر اللّغز والأحجية الذي يبدع في تراكيب اللغة، وتوظيفها لخدمة العقل والذكاء.

وكل هذا كان نتيجة ارتباط الشاعر الجزائري آنذاك بالأدب العربي الإسلامي، واقتزان الشعر بالعلم والرفي الحضاري، وانتشار الشعر العربي المحافظ في أرجاء المغرب الإسلامي عامة وفي المغرب الأوسط خاصة. وقد تعرّض كثير من التراث الأدبي وعلى رأسه الشعر في المغرب الأوسط إلى التّلف والضياع نتيجة احتدام الصراع السياسي والعقائدي بين الدول المتعاقبة، ونتيجة الغزو الفرنسي للأمة العربية الإسلامية في الجزائر، فسُرق بعضه وطُمِس البعض الآخر، فهذه الحال المؤسفة تستدعي من الباحثين مزيداً من البحث والتنقيب عن الشعر العربي في الجزائر عبر العصور، وجمع شتاته الموجود في المكتبة الوطنية لأنه سجلّ الأمة الجزائرية الثقافي والتاريخي.

المراجع

- أبو العباس الغبريني. (1979). *عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية*. بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- أبو عثمان عمرو الجاحظ. (1989). *تحذيب الأخلاق*. القاهرة: دار الصحابة للتراث.
- أحمد رضا. (1960). *معجم متن اللغة*. مكتبة الحياة: بيروت.
- آخرون ومُجد بن موسى بابا عمي. (2000). *معجم أعلام الإباضية قسم المغرب الإسلامي*. غرداية: دار الغرب الإسلامي.
- سعد الله بلقاسم. (2007). *تاريخ الجزائر الثقافي*. الجزائر: دار البصائر.
- سليمان باشا الباروني. (2005). *الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية*. لندن: دار الحكمة.
- شهاب الدين النويري. (2004). *نهایة الأرب في فنون الأدب*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- شوقي ضيف. (2002). *تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي*. القاهرة: دار المعارف.
- عادل نويهض. (1980). *معجم أعلام الجزائر*. بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية.
- عبد الرحمن الجيلالي. (1994). *تاريخ الجزائر العام*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد الرحمن الجيلالي. (1994). *تاريخ الجزائر العام*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد الرزاق ابن حمادوش. (1983). *رحلة ابن حمادوش الجزائري*. الجزائر: الشركة الوطنية للفنون المطبعية.
- فتحی إبراهيم. (1986). *معجم المصطلحات الأدبية*. تونس: التعاضدية العمالية للطباعة والنشر.
- مجددي وهبة، كامل المهندس. (1984). *معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب*. بيروت: مكتبة لبنان.
- مُجد التونجي. (1999). *المعجم المفصل في الأدب*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- مُجد الطمار. (2006). *تاريخ الأدب الجزائري*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- مُجد الطمار. (2006). *تاريخ الأدب الجزائري*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- مُجد بن موسى بابا عمي وآخرون. (2000). *معجم أعلام الإباضية قسم المغرب الإسلامي*. غرداية: دار الغرب الإسلامي.
- مُجد بن رمضان شاوش. (1966). *الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي*. المطبعة العلوية: الجزائر.
- مصطفى صادق الرافعي. (1997). *تاريخ آداب العرب*. القاهرة: مكتبة الإيمان.
- یحیی ابن خلدون. (1903). *تُغية الزواد في أخبار بني عبد الواد وأيام أبي حمو الشاححة الأطواد*. الجزائر: بيبير فونطانا الشرقية.
- یحیی بوعزيز. (1995). *أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة*. بيروت: دار الغرب الإسلامي.